الفصـــل الثـانى

العلاقـات السياسية والحربيـة بين الموحديـن والايـوبيين

١ ــ العلاقات الموحدية العربية حتى سقوط الدولة الفاطمية فى مصر

٢ ــ التحالف الثلاثى العربى المسوفى الغزى ضد الموحدين •

٣ ــ سفارة صلاح الدين الايوبى الى يعقوب المنصور الموحدى •

الفصـــل الثـــانى

العلاقـــات السياسيـــة والحربيـــة بين الموحدين والايـــوبيين

كانت معارك الموحدين مع عرب برقة وأفريقية تعنى الصدام بشكل غير مباشر بالدولة الفاطمية فى مصر • غير أن هذه الدولة كانت تلفـــظ آنذاك أنفاسها الاخيرة • ومن ثم فان استمرار معارك الموحدين مـــع القبائل المشرقية كان يعنى أن هذه المعارك قد غدت ذات طرف سياسى واحد يتمثل فى الدولة الموحدية وخلافتها ، الامر الذى طرح على القبائل العربية القبول بأحد الخيارين : الانخراط فى صفوف الموحدين وقبـــول سيادتهم السياسية والمذهبية أو عدم القبول بذلك فى اطار من التمرد القبلى المجرد من أى سند سياسى • ولم يكن أمام عرب افريقية بعد تجارب مريرة مـــع الموحدين سوى الاخذ بالمبدأ الاول ، ولم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الموحدين غير أن طورا آخر من تاريخ العلاقات الموحدية بالمشرق قد استجد بقيـــام الدولة الايوبية فى مصر محل الدولة الفاطمية • وظهرت الدولة الايوبية منذ نشأتها دولة فتية قوية ، سرعان ماتسعت حدودها خارج مصر باســـم الخلافة العباسية • وأنعكست علاقات الموحدين بهذه الدولة بادىء ذى بدء على عرب برقة وأفريقية الذين ظهروا على رأس حملة قراقـــوش ضـــد الموحدين بالمشرق من محاولات لرأب الصدع بين الدولة الموحدية العتيدة والدولة الايوبية الناشئة فيما قام من اتصالات دبلوماسية بين يعقـــوب المنصور الموحدى والناصر صلاح الدين •

(١)

العلاقات الموحدية العربية الى سقوط الدولة الفاطمية فى مصر

كانت بلاد المغرب هدفا لموجات من الهجرات العربية القادمة من المشرق الاسلامى من بلاد الحجاز أو بادية الشام والعراق اما رغبة فى الجهاد ونشر الاسلام أو الاستقرار فى مناخ هادىء بعيدا عن أنظار العباسيين أو فرارا من الاضطهاد المذهبى الذى كانوا يتعرضون له على أيدى السلطات العباسية • وعلى هذا النحو قامت فى المغرب قوى سنية مالكية وأخرى شيعية حسنية واسماعيلية هذا بالاضافة الى القوى الاباضية والصفرية الخارجية الذين ساندوا الدعوة الاسماعيلية فى المغرب ودعموا كيان الدولة الفاطمية فى مصر وحكموا باسمها فى افريقية والمغرب الاوسط •

ولكن أكثر الهجرات العربية فعالية وقوة وأثرا فى الاحوال السياسية والاجتماعية فى المغرب هجرة القبائل الهلالية من بنى هلال وبنى سليم ورياح والاثبج وزغبة وهى وأن كانت مدفوعة بدوافع سياسية من حكومة موتورة عاجزة وهى الحكومة الفاطمية فى مصر وسببت كثيرا من الاضطرابات السياسية والاقتصادية فى المغرب طوال ما يزيد على قرن من الزمان الا أنها كانت خيرا على المغرب الاسلامى اذ ساعدت على تعريبه وتخفيف حدة اللهجات المحلية •

أ ــ اتصال الموحدين بقبائل العرب فى افريقية فى عصر عبد المؤمن وولده يوسف :

وتم أول اتصال موحدى بالقبائل العربية أثناء عبور المهدى بن تومرت بافريقية والمغرب الاوسط فى طريق عودته الى السوس فقد اتصل

بالثعالبة عرب الجزائر [١] ، فكانوا أول من ناصر الدعوة الموحدية [٢] . ثم كانت حملة عبد المؤمن الاولى على أفريقية فى سنة ٥٤٦ هـ واستيلائه على الجزائر وبجاية وقلعة بنى حماد وعودته بصحبة الحسن بن على بن يحيى الصنهاجى الى مراكش (توفى الامير الحسن فى تامسنا سنة ٥٦٩هـ) على النحو الذى أوضحناه . وتجدر الاشارة الى أن القبائل العربية من الاثبج وجشم توافدت على عبد المؤمن أثناء تحركه بجيوشه نحو افريقية وبايعته فى نفس سنة ٥٤٦ هـ ، فعقد لابى الجليل بن شاكر أمير عرب الاثبج ، ولحباس بن مشيغر على عرب جشم ، وبعونهم استولى عبد المؤمن على بجاية وقلعة بنى حماد وقسنطينة ، وطرقت جيوش الموحدين أبواب افريقية بعنف [٣] . غير أن القبائل العربية من الاثبج وزغبة ورياح بنو قرة (من قبائل بنى هلال) قد راعها عظم نفوذ الموحدين بادرت بالاجتماع بزعامة يحيى بن العزيز بظاهر بجاية وتناست ماضى العرب والحماديين من أحقاد وثارات ، وتحالفوا لمحاربة عبد المؤمن وانقاذ ملك بنى حماد وأنتهز صاحب صقلية هذه الفرصة ليدلو بدلوه ويدخل فى هذا الحلف ، فعرض عليهم نصرته وحاول مساعدتهم بخمسة آلاف فارس

---

(١) هم من بطون بنى معقل ، كانوا يسكنون اولا بجبل تطرى حيث مدينة أشير . ثم غلبهم عليه بنو توجين فانتقلوا الى فحص متيجة المجاور لمدينة الجزائر فسكنوه تحت حماية قبيلة ملكيش ، وقد تتبع ملوك بنى عبد الواحد هذه القبيلة بالقتل والسبى والنهب الى أن دثرت فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، ولم يبق لها منذ ذلك التاريخ وجود . واليها ينسب العلامة الجزائرى سيدى عبد الرحمن الثعالبى (ت بالجزائر ١٤٧٠م) . عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ٤٢٤ .

(٢) مما يذكر هذا الصدد انهم أدوه حمارا فارها ليركبه وقد أهدى الحمار بدوره الى عبد المؤمن . السلاوى ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ٩٠ .

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، بولاق ١٢٨٤هـ ، ص ٢٠ .

من النصارى ولكنهم أنفوا من الاستعانة بالنصارى ورفضوا عرضه [٤] .

ودارت المعركة بين العرب والحماديين وبين الموحدين بناحية سطيف عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وأنتهت بهزيمة العرب لاول مرة منذ مائة عام بعد دخولهم الى أفريقية . فقسم عبد الله بن عبد المؤمن جميع أموالهم على عسكره ، ولكثرتها وزعها حين عودته فى فاس ومكناس وسلا [٥] . ولعنف صدمة هذه الهزيمة على العرب ، أخذوا فى مراجعة أنفسهم وقبلوا الدخول فى طاعة الموحدين ، وأذعنوا لحكمهم بل أن شيوخهم توجهوا الى الخليفة عبد المؤمن فى مراكش لاعلان ولائهم له فوصلهم وأكرمهم وأعادهم الى افريقية معززين . وكان لذلك أعظم الاثر فى دخول العرب فى طاعته ، فاتخذ منهم جندا وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم أنه استنفرهم بعد ذلك للغزو بالاندلس فأجابه عدد كبير من العرب جاز بهم الاندلس سنة ٥٥٥ هـ [٦] .

وظل عبد المؤمن على وفاق مع العرب الى تاريخ عودته (٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م) الى أفريقية لتحرير المهدية من سيطرة النورمان وضغطهم المستمر برا وبحرا على المسلمين . وأثناء حصاره للمهدية جاءته الانباء بعيث قبائل بنى سليم . فعمل على استمالتها تارة بحثها على الجهاد وأخرى بالامداح والقصائد [٧] . ولما لم يستجب شيوخها وتمادوا فى

---

(٤) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٧٦ .

(٥) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، ص ٢٦—٣٢ . وهذه الرسالة موجهة الى أهل مراكش فى أول ربيع الثانى سنة ٥٤٨هـ يخبرهم فيها بغزوته فى البلاد الشرقية وظفر الموحدين على الاعراب بناحية سطيف . (البيذق ، المصدر السابق) .

(٦) د. سالم ، المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٧٩٤ .

(٧) من القصائد البليغة التى ألقاها القاضى ابو عمران التينملى صهر عبد المؤمن قوله :

عنادهم ، جرد عليهم جيشا بقيادة وزيره عبد السلام الكومى . الـــذى استأصل شأفتهم من الجنوب التونسى ، فكانت هزيمة ثانية كبرى لهم .

وفى أعقاب انتصار الموحدين على النصارى فى المهدية سنة ٥٥٥هـ ــ ١١٥٩ م المعروفة بعام الاخماس ، بلغت عبد المؤمن قيام العرب من جديد بالثورة عليه بعد أن حافوا على مصحب عثمان بالتزام الطاعة ، فسرح اليهم جيشا جرارا بقيادة ابنه عبد الله أوقع بهم بالقـــرب من القيروان وقتـــل زعيمهم محرز بن زياد الفارغى من بنى على احدى بطون رياح [٨] . كما استولى عبد الله على قابس وكان قد تغلب عليها بنو كامل من رياح ، وعلى قفصة أنتزعها من بنى الورد وطبرقة من مدافع بن علال وجبل زغوان مـــن بنى حماد بن خليفة والاربس من بنى قتاتة العرب [٩] .

ومنذ ذلك الحين انضوى العرب تحت لواء الموحدين وأصبحـــوا أعوانا لهم فاستغل عبد المؤمن الطبيعة القتالية عندهم للجهاد ضد الاعداء داخليا وخارجيا . فعد من افريقية هذه المرة وبصحبته أعداد كبيرة منهم وصلت الى ألف من كل قبيلة [١٠] بعيالهم من بنى رياح وجشم وبنى عدى، حتى أن ابن صاحب الصلاة يصفهم لكثرتهم بالذباب والحصى [١١] ومن

اسليم دعـــوة ذى أخاء مرشـــــد هاد الى الحق المبين المســـعد
وتـــذكر ما كان أســـــلاف لـــكم فضـــلوا به أفعال كل مســـدد
بجهـــاد اعـــــداء الاله ونصرهم لرســـول ربهم النبى محمـــد

(ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٣٩ ، راجع أيضا قـــول ابن المنخـــل ص ٤٥) .

(٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٥ــ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٩) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٤٩٤ . د. سالم ، المغرب الكبير ، نفس الصفحة .

(١٠) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٩ . حيث يقـــول : « بعيـــالهم وأبنائهم ، وهم عرب جشم » .

(١١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق التازى ، ص ١٤٤ .

الاشعار التى نظمت فى انتصار الموحدين على العرب ، خاصة عرب رياح قـول عبد الملك بن عيـاش :

ولمـا بعثت مـن جيشهـا نفـلا
ألقـى بنفسـه فى كنـف منتهـب
صـدر بالعـرب العربـاء وانقلبت
عـن الحسام رياح شر منقلـب (١٢) .

ألحق عبد المؤمن العرب الجندية لتوجيههم الى الاندلس ، وأمـر بتدريبهم على الفنون الحربية واعدادهم لجولاته المقبلة ، وأرسـل بذلك الى عماله فى بلاد الاندلس يعلمهم بما سيقدمه هؤلاء العـرب ، وقسمهم الى كتائب وزعها على مختلف أنحاء المغرب ، وأخرى على الاندلس للرباط بالثغور . فنزلت بعض القبائل بقرطبة ، وأخرى باشبيلية ، وأبلى أبناؤها بلاءا حسنا بهرت انتصاراتهم الالسن ، فذكر أبو العباس الجراوى شاعر الموحدين فى دور العرب :

لـو راء مـوسى ما فعلت وطـارق
زريـا بمـا لهمـا مـن الاثـار
أتممت ما قـد أملـوه وفـاتهم
مـن نصر ديـن الواحـد القهـار
بعـراب خيـل دوقهـن أعـارب
مـن كـل مقتحم على الاخطـار

---

(١٢) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ١٦٢ . وهناك قصيدة اخرى مماثلة فى المعنى للشاعر أحمد بن سعيد الاشبيلى المعروف باللص (عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ٣٩٨) .

أكـــرم بهـــن قبائـــل اقلالهـــا
فى الحـــرب يغنيهـــا عـــن الاكثـــار
أنظـــر اذا اصطفت كتائبهـــا الـــى
ماتحمـــد الكتـــاب فى الاسطـــار
لـــو أنهـــا نشرت عليـــا لم تـــرد
خيل ابن حرب ساحـــة الانبـــار (١٣)

ولم تنته علاقة العرب الهلالية بدولة الموحدين بوفاة عبد المؤمـــن فى ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ / ١٧ مايو ١١٦٣ م ، بل ظلت تلك العلاقـــات قائمة فى عهد خلفه أبى يعقوب الذى سار على نفس سياسة أبيـــــه فى استجلاب العرب واستمالتهم والحاقهم بالجندية وتسخير طاقاتهم الحربية من أجل الحفاظ على الامن فى الداخل والجهاد فى الاندلس • فكان يرسل لهم مخاطباته شعرا ونثرا (١٤) فتسرى فيهم مسرى السحر فى الجسد ، فيقبلون أزرافا وجماعات • وشهد لهؤلاء العرب حين دخولهم الى المغرب الاقصى وبلاد الاندلس خلوص السريرة وصدق العزيمة ، وحسن النيـــة على خدمة الدولة ومجاهدة الاعداء (١٥) • ومن ألطف ماكتب لاستدراجهم

---

(١٣) يعتبر المؤمن أول من جلب العرب من افريقية الى المغرب . ويذكرنا استخدام عبد المؤمن لهم قول الشاعر ابو العباس الجراوى مهنئا بالانتصـــار الذى أحرزه العرب فى وقعة فحص بلقون سنة ٥٥٦هـ .

اعليت دين الواحـــد القهـــار بالمشرقيـــة والقنـــا الخطار

(ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٧٢) .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(١٥) لا يقصد بالاعداء المسيحيين فقط بل خصوم الدولة ايضا ومنهم ابن مردنيش فى ثورته عام ٥٦٠هـ ، فاستعد له أبو حفص أخ الخليفة فى قوة عظيمة وأمر بالسير اليه والاسراع بالموحدين من الصابرين ونخبة الفرسان الابطال من العرب الرياحيين والاثبجيين . انظر : ابن صاحب الصـــلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٧٠ .

الى الدخول الى المغرب تلك القصيدة التى أنشدها أبو بكر بن الطفيل فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م يشحذ هممهم الى الغزوة الكبرى فى الاندلس (١٦)

ولما لم يستجب العرب للدعوة سريعا ألحقهم بقصيدة أروع من السابقة فصاحة وبلاغة يستحثهم على سرعة الوصول ، وفيها يقول عبد الله بن عياش :

أقيموا الى الهيجاء هوج الرواحل
وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
بنى العم من ذليا هلال بن عامر
وما جمعت من باسل وابن باسل
فطيروا اليها يا هلال بن عامر
ثقالا خفافا بين حاف وناعل (١٧) .

وبوصول تلك القصائد التى هزت الهمم العربية أقبلوا من كل فج يتزاحمون على التجمع للجهاد الاكبر فى الاندلس فتجمع فى بجاية مايقرب من ٤ آلاف فارس حاشا المشاه وقد حملوا معهم الميرة والسلاح والدواب ما يعجز حصره ، بالاضافة الى من انضم اليهم من عرب ناسان وعدتهم الف فارس من العساكر النظامية مشاة وركبانا . وبعد وصولهم الى مراكش وما تم من حفلات الضيافة وتوزيع المنح والصلات ، تم تمييز

(١٦) هى قصيدة طويلة من ٤٤ بيتا ، تمتلىء بالالفاظ الحماسية ، فأسرعوا الى تلبية الدعوة وفيها يستحثهم على النهوض فهم لا يخيبون رجاء المسلمين ولا يخلفون وعدا . (ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤١١—٤١٢ . ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٨٨—٨٩ . عبد الوهاب بن منصور ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣—٤٠٤) .

(١٧) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤١٥ ، ومدى تقربه لهم ص ٤١١ . ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٩٠ .

العرب معرفة وضبط أنسابهم ، وكان عدد الفرسان العرب الذين عبروا البحر الى الاندلس فى أول رمضان ٥٦٦ هـ / ٨ مايو ١١٧١ م عشرة آلاف فارس شاركوا فى عدد كبير من المعارك كما أسهموا فى عملية البناء والتشييد (١٨) .

هذا وقد نعم عرب المغرب الاقصى والاندلس بحياة الاستقرار بينما ظل اخوانهم فى افريقية على عادتهم من الفوضى والاضطراب يظهرون مالا يبطنون ، دعة وأمانا وسكونا فى ظل قوة الدولة ، وفوضى وفتنا واضطرابا حين يتسعرون بضعف قبضة الدولة . وهذا ما حدث بعد وفاة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وخلافة ابنه يعقوب المنصور عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م .

ب ــ سياسة المنصور مع عرب افريقية :

تجدد عبث العرب بعد وفاة ابى يوسف يعقوب ويتمثل ذلك فى تحالفهم مع على بن اسحاق بن غانية (١٩) الذى قصد بجاية حين راسله

---

(١٨) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤١٧ ، والوصف الكامل للاستقبال والمبايعة والاحتفال باطعامهم وتمييزهم ص ٤٣٠ــ٤٣٤ . ويذكر ابن عذارى عدد ما وصل من افريقية من الخيل ٤ آلاف فرس ، و ١٥٠ جملا من المال الصامت ، وعند التمييز بدأ بقبيلة زغبة على اساس أنها أقدم القبائل وصولا الى المغرب . وبعد ضبط انسابهم اجتمع للموحدين ١٠ آلاف فارس وللعرب ١٠ آلاف فارس المتطوعة (نفس المصدر ، ص ٩٢) .

(١٩) ينتمى بنو غانية الى قبيلة مسوفة ، وهم أبناء عمومة قبيلة لمتونة ، وهم من بطون صنهاجة الكبرى ، وهم أبناء على بن يوسف المسوفى . وقد أنجب على هذا ولديه هما يحيى ومحمد ، وكان يحيى من قواد المرابطين ، ويقول المراكشى فى يحيى بن غانية « كان حسنة من حسنات الدهر .. وكان مع هذا شجاعا فارسا .. اذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس .. » واستقر محمد فى جزر البليار ، حتى أنه كان يغزو بلاد الروم مرتين فى كل سنة فقوى أمره ،

جماعة من أهلها وتمكن بفضل أسطوله من التغلب عليها فى عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م . وعلى أثر دخول الميروقيين بجاية فر منها أبو الربيع أخو أبى موسى (هما عما الخليفة يوسف يعقوب) الى تلمسان بعد أن خذلته العرب وانضمت الى ابن غانية الذى تتبع أبا الربيع ، فاستولى على الجزائر وأقام عليها ابن أخيه يحيى بن طلحة ثم ضم مليانة وأسند ولايتها الى قائده يدر بن عائشة ثم عاد الى بجاية (٢٠) .

هذا وقد شنع الموحدون بابن غانية وأتهموه بالكفر ووصموه بالغدر والغى لاقدامه على السيطرة على كل افريقية والقسم الشرقى من المغرب الاوسط من ذلك قولهم عنه : « .. احزاب الشيطان وجموعه ، وبدرجماعة الخبيث وجموعه ، والكفر البائد » ؛ ويذكر عنه فى موضع آخر : « .. وقد علمتم ما كانت عليه حالة الكافر الغادر ، اللعين الخائن الخاسر ، بقية الحثالة الغاوية وسؤر الكفر الدائر ، شقى ميورقة — لعنه الله — من الانكماش فى جزيرته » (٢١)

ولم يكد على بن اسحاق يستقر ببجاية حتى أقبل عليه الناس يبايعونه بالامارة ودخلوا فى طاعته ولم يلبث أن دعا للخليفة العباسى الناصر فى

وهابه ملوك أوربا ، وتوفى سنة ٥٧٩هـ . ولم تخضع شوكة بنى غانية الا فى عهد الناصر الموحدى خاصة يحيى بن غانية . المعجب ، ص ١٧٦—١٧٧ .

راجع فى ذلك الحميرى ، الروض المعطار فى أخبار الاقطار ، ترجمة ونشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٨٨—١٨٩ .

— Alfred Bel; Les Banou Ghanya, Paris, 1903, p. 71.

د. سالم ، المغرب الكبير ، (طبعة ١٩٦٦) ص ٨٠٢—٨٠٣ .

(٢٠) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ١٤٦—١٤٨ .

(٢١) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٢٩ ، مؤرخه فى ٥ ربيع الثانى سنة ٥٨١ هـ الى طلبة اشبلية يعلمهم بغزوة الموحدين على ابن غانية ، وفتح مدينة بجاية ، وهى طويلة ، ص ١٦٨ — ١٨٠ .

الخطبة وسير ولده مع كاتبه عبد البر بن فرسان للخليفة العباسى (الناصر لدين الله) طلبا للخلع والاعلام السوداء فارسلت اليه • وجاءت تفاصيل حركة ابن غانية فى رسالة موحدية نذكر منها ما يلى : « •• ولما عنت للفاسق الفرصة ، اغتنم بزعمه انتهازها •• فداخل أوباشا ممن كان ببجاية ممن رق دينه ، وضعف أيمانه ويقينه ، وزان على قلبه شيطانه المضل وقرينه ، فيسروا له تمهد صهوتها ، وأعانوه على تسنم ذروتها ، ووصلوا بسببه الضعيف أسباب قهرها وغلبتها • ولما قر فيها قراره ، وانتشر بها فساقه وفجاره ، وتجمع له من أشباهه فى الجهالة ، وأعوانه فى الضلالة ، وغطى على بصيرته العمياء جهله وضلاله فتطوف على الجزائر ومليانة وأشير والقلعة وكر منها الى بجاية » (٢٢) •

وعندما بلغت أبا يعقوب يوسف هذه الاخبار المزعجة وبلغه خذلان العرب للموحدين وانضمامهم الى على بن اسحاق بن غانية وسيطرة هذا الاخير على معظم افريقية وقسم من المغرب الاوسط حتى قسنطينة استعد لمنازلتهم • فسير السيد أبا حفص بن السيد أبى زيد لمحاربة ابن غانية كما عقد لمحمد بن أبى اسحاق بن جامع على الاسطول الذى تحرك من سبتة (٢٣) بقيادة أبى محمد بن عطوش وأحمد الصقلى (٢٤) • وبينما خرجت قوات السيد أبى زيد ابن عم الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور الى تلمسان لتفقد حصونها ومن هناك تقدمت الى مليانة ، كانت أساطيل الموحدين تستولى على ثغر الجزائر ، ووقع يحيى بن طلحة بن غانية ويدر

---

(٢٢) ليفى بروفنسال ، المصدر السابق ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٩٢ ، المقرى : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٦٤٢—٦٤٣ .
(٢٣) ليفى بروفنسال ، نفس المصدر .
(٢٤) د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٠٣ .

بن عائشة أسيرين فى يد ابن جامع ثم تقدم أحمد الصقلى الى بجايـــة وأفتتحها وفر يحيى بن غانية الى أخيه اسحاق وكان يحاصر قسنطينة ، فرفع الحصار وولى الادبار الى قلب الصحراء والموحدون وراءه • أمـا الموحدون فقد قبضوا على أنصار على بن اسحاق وقتلوا البعض ووزع الباقون مع الاماء على الموحدين • ويأتى وصـف هـذا الحدث كما يلى : « ••• وكان طلبة الاسطول اجتمعوا بالموحدين بتلمسان ورسمـوا لهم أن يكون اجتماعهم بالجزائر •• فتيسر لهم مرامها ، وبادر أهلها الى فتـح أبوابها ، والقبض على من أمكنهم ممن كان عندهم من أوباش الضلالـة وأوشابها ، وبان للشردمة اللعينة سوء مصيرها ومآبها • وكان ممن حصل فى ثقاف القهر وتمكنت من عنقه الذليلة ربقة الاسر ، ابن عم الشقى الغوى وجماعة من أعيان شياطينه الرجماء ، وجملة من كبار أصحابه الزعمـاء •• فسارع الاسطول بالتوجه ، فهو أمر الله المنجد على كل محارب ، المظهر على كل مطالب ومغالب ، الموعود بالاستيلاء على ماروى من المشـــارق والمغارب •• ولما سهل الله لهم استعادة بجاية وفتحها ، حتى انتهوا الى أوائل متيجة •• وبقى الخائن الخاسر بجهة قسنطينة مسلوبا محروبـــا مغلولا منكوبا » (٢٥) •

ولقد هنأ الشعراء الخليفة المنصور بذلك الفتح المبين ؛ فقـــال الشاعر أبو العباس بن عبد السلام :

لـــواؤك منصـــور وسعدك غـــالب
وحزبـــك للاعـــداء عنـــك محـــارب

---

(٢٥) ليفى بروفنسال ، المصدر السابق ، والصفحة .

لقد ثكلت أم المنـــادى وغـــــررت
مبـادى مـــن أحوالـــه وعـــواقب
سمـــاء ستراق السمع مـــن وهداتـــه
ودون سمـــاء الملك شـــهب ثـــواقب
تـــلاقى عليـــه البـــر والبحـــر تـــرتمى
سفينـــا الى استيصالـــه وكتائب (٢٦)

أما ابن غانية فقد زحف الى قفصة واستولى عليها ثم حاصر توزر فلما استعصت عليه تركها ومضى الى طرابلس حيث التقى بقراقوش الغزى المظفرى واتفق معه على التحالف ضد الموحدين كما نجح فى استمالة قبائل من بنى سليم من العرب النازلين ببرقة وتجمع لديه المنحرفون علـــى الموحدين من رياح وجشم والاثبج ثم عاد ابن غانية فى السنة التاليـــة (٥٨٢ هـ) ونزل بأطراف طرابلس يؤلب فيها العرب • ووصلت الكتب الى المنصور بذلك فأستعد فى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ورفض استصحـــاب عرب المغرب معه هذه المرة وأكتفى منهم ببعض أشياخ رياح كبنى زيـــان لقدم هجرتهم الى المغرب وصدق نصيحتهم (٢٧) •

وكان ابن غانية قد سيطر بفضل حلفائه من العرب والغز على قفصة وكثير من بلاد الجريد وحصونها وأقام الدعوة العباسية فيها كما أفتتـــح تـــوزر •

وعندما وصل المنصور الى تونس سير جيشا بقيادة يوسف بن أبـــى حفص عمر وعمر بن أبى زيد لمحاربة ابن غانية ووقع الاشتباك فى موضع

---

(٢٦) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ١٥١ .
(٢٧) السلاوى ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ١٥٨ .

يقال له عمرة • فانتصر ابن غانيـــة وحلفائه الاعـــزاز والعرب انتصـــارا حاسما وفيها قتل جملة من أعيان الموحدين من بينهم عمر بن أبى زيد نفسه وعلى بن يغمور وفرت فلال الموحدين الى قفصة ولاذ معظمهم بتـــونس • وقرر المنصور الاقامة فترة بتونس لاعادة ترتيب الجيوش وتمييزهـــا بسبب ما وصلته من أنباء مخالفة مدينة قفصة من بلاد افريقية عليـــه ، فخرج بنفسه لمحاربة ابن غانية والتقى معه فى حامة دقيوس فى شوال من نفس السنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فانهزم على بن غانية وتمكن المنصور مـــن فتح قفصه وقابس وتورر [٢٨] ثم أوقع بعرب افريقية وهزمهم هزيمـــة نكراء استباح جلهم وأموالهم فأتوه طائعين صاغرين ونقل عددا منهم الى المغرب [٢٩] •

أما على بن غانية فقد قتل فى بعض حروبه مع نفزاوة فى سنة ٥٨٤ هـ وخلفه أخوه يحيى بن اسحاق [٣٠] فواصل مضايقة الموحدين •

وهكذا تراوحت العلاقات الموحدية العربية بين التطويع الجبـــرى والاستئلاف الودى • كذلك تراوحت مواقف العرب بين القبول بالانخراط

---

(٢٨) د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٠٥ .

(٢٩) ترك المنصور عرب بنى سليم فى أماكن سكناها بأرض افريقية ولكنه نقل من بنى هلال وبنى جشم أعدادا كبيرة الى المغرب الاقصى حين أتوه طائعين فى سنة ٥٨٤ هـ . فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط — وهى ما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير وتسمى اليـــوم بسهل الغـــرب .. ، والى ازغار البسيط وهى السهول الممتدة من طنجة شمالا الى سلا على ساحل البحر المحيط، واستقروا بها وطاب لهم المقام . وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط ما بين سلا ومراكش جنوبا ، وهى أوسط بلاد المغرب الاقصى وتضم السهول الممتدة من نهر أبو رقراق الى نهر أم الربيع . الســـلاوى ، الاستقصـــا ، ج ٢ ، ص ١٦٨—١٧٠ . بن عبود ، تاريخ المغرب ، ص ١٥٢ .

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٩٦ وما يليها . د. سالم ، المغرب الكبير .

فى الجندية الموحدية وحياتها الاقطاعية العسكرية فى أراضى الثغـــور الموحدية وبين العودة للحياة القبلية والقبـول باغـراءات معـارك الكر والفر الصحراوية تأييدا للقوى الخارجة على الموحدين ممثلة فى الميورقيين وبقايا أسرة المرابطين •

ومع ذلك فقد كانت قوة الخلافة المـوحدين تمثل قطب الجـاذبية السياسة الاقوى والمتحكم فى تحديد الولاء النهائى للقبائل العربية أثناء أحداث تلك المـرحلة التاريخيـة التى بلغت خـلالها الدولتان الفاطمية والعباسية أدنى درجات الاعياء والضعف • ولكن الامر يتبدل عندما تحل الدولة الايوبية محل الدولة الفاطمية وتدين فى ولائها السياسى للخلافـة العباسية وتجدد دماء القوة العسكرية للمشرق الاسلامى وتوحد خلافته ، ويظهر نشاط هذه القوة الفتية وتدخلها فى التراب المغربى بالفعل ممثلا فى تلك الحملة التى قام عليها القائد المعروف ببهاء الدين قراقوش الاسدى الغزى وأمكنه أن ينشىء حلفا ثلاثيا (أيوبيا ــ عربيا ــ ميورقيا) بأسم الخلافة العباسية •

(٢)

التحالف الثلاثى : العربى المسوفى الغزى ضد الموحديـــن

كان بهاء الدين قراقوش [٣١] المظفرى التقوى مولى تقى الديـــن عمر [٣٢] ، ابن أخ صلاح الدين ونائبه على مصر قد خرج عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م غازيا الى بلاد المغرب ومن هناك كتب الى مولاه تقى الدين عمر

---

(٣١) راجع فى ذلك ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص ٩١ــ٩٢ •

يقول : « ان البلاد سايبة » [٣٣] . ووجدت هذه الدعوة صدى طيبا لدى تقى الدين الذى كتب بدوره يستأذن السلطان صلاح الدين فى الخروج ويسأله : « ألا يمنعه من سلوك مسلكها » . ويزودنا صاحب المضمار (المنصور محمد بن تقى الدين عمر) بحوادث هذه الحملة وفقا لترتيب السنين ففى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) يذكر أنه خرج قاصدا طرابلس حتى وصل الى حد نفوسة وفيها تلاقى مع أشياخ وأعيان قبائل دباب الذين وصل عددهم حوالى ٥ آلاف وهى جموع غفيرة من عرب بنى هلال بالاضافة الى ما كان معه من الفرسان والاجناد من الاجناس التركية والكردية والاكادشية وصل عددهم الى ٤٠٠ فارس [٣٤] .

وقام بهاء الدين قراقوش بافساد العرب على أهليهم ، فأخذ هو جانب دباب وزعامتهم فى حميد بن جارية ضد زغب وزعيمهم ناصر الدين ابراهيم ، ويتضح ذلك فى قول قراقوش لصاحبه حميد : « يا أمير ، انما قصدى أن أستفسد جماعة من الاتراك الذين عند ابراهيم ويقل أصحابه وتقوى عليهم » [٣٥] .

وأراد بهاء الدين قراقوش القضاء على ابراهيم زعيم زغب بواسطة دباب غير أن الجانبين العربيين (دبب وزغب) أقدما على نهب خباء

---

(٣٢) عينه صلاح الدين نائب عنه فى مصر ، وفى رجب من سنة ٥٧٩هـ طلبه فى القدوم الى الشام ففضب وأعلن عن عزمه على المسير الى برقة وديار المغرب ليلحق بفتاة بهاء الدين قراقوش . أنظر : ابن خلكان ، نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٤٥٦—٤٥٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٩١—١٩٢ .

(٣٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج٢ ، ص ٧٠ . ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر د. الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

(٣٤) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ، ص ١٤٦ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٩١—١٩٢ . التجانى ، الرحلة ، ص ١١١—١١٣ .

(٣٥) حسن حبشى ، مضمار الحقائق ، ص ٣٥ .

قراقوش وأبراهيم على حد سواء • ولما شاهد جند قراقوش الاتـــراك هذا الموقف الذى تضامن فيه عرب دباب وزغبة خافـــوا أن يفتكوا بهم ، فهرب بعضهم وبالتالى دارت الدائرة على بهاء الدين قراقوش الـــذى لم يجد شيئا فى خبائه رغم أنه كان يملك من الاثقال الشىء الكثير • ويحصى صاحب المضمار ما كان لديه من الجمال فيذكر : « أن الذى كان تحت ثقله لنفسه ألفا وثلاثمائة جمل ، وأما الاتراك فللواحد أربعون جملا ، وثلاثون جملا وأقل وأكثر » (٣٦) • ولم يبق له ولا لجنده ملبس ولا مأذل حتى أنه شكا الى حميد بن جارية قومه وما فعلوه به ، فتواعدهم حميد بماينظرهم، وأمد قراقوش بحاجته . ووصل قراقوش الى طرابلس فى ٤٠ فارسا ونزل على مدينة تاجرة غرب طرابلس • ولما رأته زغبة خافت وحاولت الصلـــح بين أبراهيم وقراقوش ، وفعلا تم الصلح على حد فاصل معلوم بيـــن قراقوش وبين زغبة هو نفوسة ، فما كان شرقها لبهاء الدين قراقـــوش وما كان غربها فلابراهيم • وظل قراقوش بقية السنة (٥٧٥ هـ) فى طرابلس أمنت فيها دباب من غارات زغب ، الا أنها استغلت هذه الهدنة وغـــدرت بالاتراك من قوات قراقوش • فكانت تسرقهم وتقتل من تلقاه من الاتراك منفردا • وازاء ذلك قرر قراقوش الانتقال الى قابس من أرض افـــريقية فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) •

والواقع أن القرار الذى اتخذه قراقوش بالانتقال نحو قابس انما تم بعد أن أمن جانب ابراهيم زعيم زغب فقد أخذ عليه المواثيق والعهـــود بعد أن غدر الواحد منهما بالآخر ، وقبل أن يرحل قراقوش خاطب ابراهيم

---

(٣٦) د. حبشى ، المضمار ، ص ٣٧ .

بقوله : « تركت هذه البلاد وأهلى بقلعة أم العز (هذه القلعة تطل على شرق جبل نفوسة) فى وديعتك وأنا متوجه ، فان فتح الله تعالى على واستغنيت عنها أعطيتك الجميع »[٣٧] .

ثم مضى قراقوش غربا نحو بلاد افريقية وأوغل فيها وأخذ يفتتح الحصون والقلاع مستغلا ثورات العرب على بنى عبد المؤمن وتمردهم عليهم ، فيؤلب القبائل بعضها على بعض كما حدث بين عثمان وفروخ صاحبى قلعتين بمدينة دمر فطلب فروخ مساعدة قراقوش ضد عثمان الذى استنفز بدوره البربر بقوله : « ان هؤلاء الغز قافلة » لكثرة من انحاز الى جانب قراقوش وخوفا منه بسبب قوته وبطشه بأعدائه . وحدث أن دخل قراقوش قلعة عثمان وأعمل السيف فى رقاب أهلها من البربر كما بطش بأهل المناطق المحيطة بجبل نفوسة ومطماطة وملاقة بحجة أنهم قوم خوارج . وطلب عثمان الامان ، فأمنه قراقوش بشرط أن يظفر بالجبل وقسمه اقطاعات للاجناد . وأمن من بقى من أهل القلعة مقابل مبلغ معين من المال ، ثم رحل قراقوش الى قلعة أخرى تسمى « أم لامة » يبلغ عدد سكانها البربر ما يزيد على ٢٠ ألف راجل ، فقاتلهم فى سنة ٥٧٦هـ — ١١٨٠م وغنم غنائم كثيرة .

وفى سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م ارتحل قراقوش الى افريقية[٣٨] فنزل على الاربس[٣٩] واجتمع معه عدد من العرب من مرداس والرجالة (وهم من أكبر بطون رياح) ، وجال البلاد ثم عاد الى قفصة بعد أن كاتبه بعض

---

(٣٧) د. حسن حبشى ، المضمار ، ص ٥٣ .
(٣٨) أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٧ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٣٠ .
(٣٩) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٤٩٤ .

شيوخها ووعدوه على ليلة معينة لدخولها انتقاما من الموحدين الذين كانوا قد انتزعوها عنوة من يد أصحابها بنى الرند فى سنة ٥٧٥هـ • ولكن فى تلك الليلة الموعودة لم يستطع قراقوش ومن معه من الشيوخ والاعراب اقتحام أسوار المدينة ، فقد شعر بهم الموحدون فنازلوهم وأوقعوا بهم الهزيمة •

وفى أواخر سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م نزل قراقوش موضعا قريبا من القيروان يسمى سكة وبصحبته من العرب سليم الشريد فى حوالى ألف فارس كما وصل اليه حميد بن جارية زعيم دباب فى ٢٠٠ فارس • وما أن تقابل القائدان العربيان حتى نشب بينهما القتال لخصومة قديمة بينهما • وانحاز قراقوش فى هذا القتال الى حميد ، بينما انسحبت مشايخ الشريد وتركوه وحيدا يلاقى مصيره أمام قوات الموحدين الذين ظهروا آنذاك بقيادة أبى موسى بن عبد المؤمن فى نحو عشرة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل • فصالح قراقوش قوات الشريد وساعت هذه القوات الى الاجتماع معه وهجموا على الموحدين هجمة واحدة انكسر فيها الجيش الموحدى • وفى هذه المعركة غنم قراقوش وأسر عددا كبيرا من قواد الموحدين منهم ابن مثنى صاحب ديوان افريقية والقاضى ابن ماسكة قاضى افريقية وجماعة كبيرة غيرهما حاولوا فداء أنفسهم بمبالغ من الاموال(٤٠) • وقسم قراقوش الغنائم على جنده الاتراك والاكراد • وفى أثناء تقسيم الغنائم وصلته الانباء بنكث ابراهيم بأهله فى قلعة أم العز ، فقرر العودة • وفى طريقه الى طرابلس تلقى طاعة كل من دباب وزغب • أما ابراهيم فلم يسعه بعد سلسلة من المحاولات للوقوف ضد قراقوش الا أن يطلب العفو ، فشرط

---

(٤) د. حبشى ، المضمار ، ص ٧٠ .

عليه قراقوش أن يتوجه الى طرابلس ومنها فى مركب الى الديار المصرية[٤١] .

وفى طرابلس تمت الحيلة لمنع سفر ابراهيم الى مصر عندما حثه والى طرابلس (ابن مطروح عبد المجيد) ، الذى كان على ولائه للخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ، على التوجه الى المغرب . وفعلا انتقل ابراهيم فى مركب الى تونس حيث تلقاه واليها عبد الواحد وسيره الى مراكش .

ثم حاول قراقوش الاستيلاء على قابس ، فاشتبك مع أهلها البربر وأوقع بهم الهزيمة . وغنم منها الكثير من الاموال والاقوات وزعها على أصحابه وأجناده . ثم التقى قراقوش بعدها مع على بن اسحاق بن غانية وتحالف معه ضد الموحدين وقد تم هذا التحالف على أسس قوية قوامها الرابطة السياسية المنبثقة من الولاء للخلافة العباسية ، والاتفاق على تقسيم المغرب بين الغز المماليك والميورقيين[٤٢] . ويعبر رسول ابن غانية الى قراقوش عن ذلك بقوله : « اننا قوم من بنى العباس ونريد دولتهم ، ونحن نريد أن نكون واياك مجتمعين »[٤٣] .

وبعد هذا النجاح المستمر لحملة قراقوش ، استدعاه المنصور أخ سيد

---

(٤١) د. حبشى ، نفسه ، ص ٧١ .

(٤٢) قام اتفاق التقسيم المذكور على أساس أن يكون لقراقوش البلاد من بونة شرقا ولابن غانية من بونة غربا . د. حبشى ، المضمار ، ص ٢٢٩ .

(٤٣) ومن أجل تحقيق ذلك الاجتماع أرسل اليهم قراقوش بهاء الدين ساروج ومعه ستون فارسا من أجناده الاتراك الذين وصلوا اليهم سريعا . وكان أعوان ابن غانية قد أخفقوا فى الاستيلاء على توزر وما حولها ، الا أن استبسال الجند الاتراك أدى الى الاستيلاء عليها (د . حبشى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٩) .

الناس (مقدم ورئيس نفزاوة) ، وأطاعه بنو يشترى أعداء المنصور فولى عليهم مملوكا يدعى حراج وبذلك قوى مركز قراقوش • وزاد من قوته أيضا ما كان يصل اليه من امدادات متواصلة من مصر من مماليك وأكراد(٤٤) •

وكان على ابن اسحاق بن غانية قد سيطر على كل افريقية عدا تونس والمهدية بالاضافة الى القسم الشرقى من المغرب الاوسط حتى قسنطينة • وأصبح التحالف الثلاثى العربى الغزى الميورقى يشكل خطرا جاثما على دولة الموحدين ، فقرر المنصور التصدى لهذا الحلف والقضاء على بنى غانية قضاء مبرما فخرج على رأس حملة كبرى فى عام ٥٨٢هـ — ١١٨٦م الى افريقية واشتبك مع ابن غانية وحلفائه فى حامة دقيوس فانهزم ابن غانية وفر الى صحراء افريقية وتمكن المنصور بذلك من توجيه ضربة قاصمة الى رباط التحالف بينه وبين قراقوش(٤٥) •

ونستدل من نص رسالة يعقوب المنصور الى طلبة مراكش عام ٥٨٣هـ — ١١٨٧م(٤٦) أن الحملة الموحدية قد بلغت القيروان وقفصة وقابس

---

(٤٤) وصل الى قراقوش من مصر جماعة من أتباعه يرأسهم شجاع الدين بن شكل وبالتالى زاد عدد جنده الى ٨٠٠ فارس من الاتراك والاكراد ، وقد بذل لابن شكل ومماليكه الخير الكثير حتى أنه وعده بقوله : « اذا فتح الله البلاد وملكناها أعطيك ما هو أكثر من هذا وأعظم » بعد أن خلع عليه وأعطاه ٥٠ جملا ، ١٠ من الخيل ، ٨ آلاف دينار . انظر : د . حبشى نفس المرجع ، ص ١٦٧—١٦٨ . ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، تحقيق البجاوى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، ج ٣ ، ص ١٣٨٢ .

(٤٥) د . سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧١٨—٧١٩ . انظر الملحق ، رقم ٥

(٤٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ص ١٨٠—١٩٠

لمنع « الاشقياء الغربيين .. واخوانهم فى الضلالة الميورقيين .. وصعاليك سليم وذؤبانهم وكل من وافقهم على الضـــلالة من الاعـــراب » من أن « يستقلوا » بالجهات الافريقية . أما « بنو الشقى قراقوش وأهله » فى قابس وقدسبتهم الحصينة بها ، فقد « حصل .. وبنوه وماله غنما لاولياء الله تعالى ونفلا وملكها لطائفة الحق وخولا » . وهذه الاوصاف فى حد ذاتها توجز فى وضوح بيـــان أسباب الحملة الموحـــدية ونتائجها على افـــريقية والوجود الايوبى فيها فى شخص رجال حملة قراقوش .

وبعد عام ٥٨٢هـ ــ ١١٨٦م تكاد أخبار قراقوش التى نشرها المضمار تتوقف على الرغم من الحقيقة باستمرار احتفاظه بالمناطق الممتدة من جبل نفوسة ومطماطة وبلاد نفزاوة بما تبقى له من أعراب وما كان ينضاف اليه من أتراك وأكراد يفدون من مصر[٤٧] .

واذا تتبعنا بقية أخبار على ابن اسحاق بن غانية ، بعد قفول المنصور عائدا الى المغرب وجدنا أنه نزل فى بلاد الجريد ، وهناك سقط صريعـــا فى بعض حروبه مع نفزاوة فى سنة ٥٨٤هـ ــ ١١٨٨م ، وخلفه أخوه يحيى بن اسحـــاق[٤٨] . ولم يتردد يحيى فى مضايقة الموحدين كما كان يفعل أخوه على من قبل ، ونجح فى الاستيلاء على بسكرة عنوة وكثر عيثه فى البـــلاد وفى هذه الاثناء أعاد قراقوش الحلف القديم بينه وبين بنى غانية الى حيز التنفيذ ، وترتب على ذلك أن خرجت منطقة الجريد وطرابلس من قبضـــة الموحدين للمرة الثانية . وعزم المنصور على القضاء على هذا الحلف الثلاثى

---

(٤٧) الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ١٥

(٤٨) د . سالم ، المغرب الكبير ص ٨٠٥ (طبعة ١٩٦٦) .

من جديد لكنه عدل عن ذلك ريثما ينتهى من حربه من قشتالة فى الاندلس • واستغل يحيى بن غانية انشغال الموحدين بحروبهم فى الاندلس فى الفترة من ٥٩١هـ (٤ــ١١٩٥م) الى وفاة المنصور فى ٥٩٥هـ (١١٩٨م) وتمكنوا من السيطرة على افريقية(٤٩) •

ولم يتم القضاء على الحلف الغزى الميورقى الا فى عهد محمد الناصر عندما ركز جهوده للقضاء على بنى غانية وأمكنه التغلب على قوات يحيى فى عدة مواقع • ومع ذلك ظل بنو غانية شوكة فى جنب دولة الموحدين حتى استقل بنو حفص بتونس(٥٠) •

وفى هذه المرحلة ذاتها ، كانت سفارة صلاح الدين الايوبى الى المنصور الموحدى التى استهدف منها الاستعانة بأسطول الموحدين ضد الصليبيين • وكانت أحداث حملة قراقوش من النقط السوداء التى عرقلت جهود ابن منقذ رسول صلاح الدين وقد عبر المنصور عن استيائه من تصرفات قراقوش فى رسالة وجهها الى طلبة مراكش • وتكرر ذلك فى رسالة أخرى تستكمل هذا التفسير وترد على كل تساؤل حول تلك النقطة ، وفيها يبلغ الموحدين بافتتاحه قفصة ، وما تم من قمع المعتدين الماردين ودمار أعداء الدين واراحة تلك الاصقاع من هؤلاء الاوباش • ثم تشرح الرسالة كيف توغل الجيش الموحدى فى طرق لا عهد لرجاله بها الى حد وصفها « بأن سلوكها لمن العجائب العجاب » ، وكيف استسلمت بلاد تلك المناطق بمجرد وصول عساكر الموحدين مثلما وقع فى واحة توزر تخلى سكانها

---

(٤٩) د . سالم ، نفسه ، نفس الصفحة .

(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٦٩ــ١٧٠ . ابن أبى زرع ، القرطاس ص ٢١٨ــ٢١٩ .

عن أموالهم وأثاثهم حتى نقل الموحدين أســـلابهم وأصبح أهلها وبنـــوها وشبابها رقيقا • وتظهر الرسالة بوجه عام مدى الاستعـــدادات الجهادية التى أعدها الموحدون فى اطار حملاتهم على افريقية وطرابلس للقضاء على حملة قراقوش ومن تبعه من العرب ، وكيف وصل رسل قراقوش خاضعين يطلبون اليه التوبة راغبين فى التوحيد ويعلنون أنهم سوف يصـــلون الى الموحدين طائعين سامعين اذا ما قبلت توبتهم[٥١] •

(٣)

سفارة صلاح الدين الايوبى الى يعقوب المنصور الموحدى

كان من أمر أحداث حملة قراقوش وما خلفته فى نفوس الموحـــدين نحو صلاح الدين مؤسس الدولة الايوبيـــة الفتية فى مصر ، ومن خـــلال أحداث هذه الحملة ، وقف الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على قوة الدولة المشرقية الجديدة الناشئة وسرعة اتساعها باسم الخلافة العباسية المنافسة• ومن ثم ، فان العلاقات السياسية بين الدولة المغـــربية العتيـــدة والدولة المشرقية الناشئة لم يكن لها أن تصفو لصالح العالم الاسلامى الا بعـــد أن تبلغ الدولتان الحد الاقصى من جهودها الحربية كالجهاد ضد الحـــركة الصليبية • ولسنا بصدد عـــرض الجهـــود العســـكرية التى بذلها كل من الموحدين والايوبيين فى هذا المجال وتتويج ذلك بالنسبة للموحدين بانتصار الارك (٥٩١هـ ـــ ١١٩٥م) وبالنسبة للايوبيين بانتصار حطين (٥٨٣هـ ـــ ١١٨٧م) ، أو على حد قول د• سعد زغلول عبد المجيد : فبينما يقوم صلاح الدين بالحرب فى الشام باسم الخلافة العباسية أى الخلافة السنية ، التى

---

(٥١) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣١ ،ص ١٩٨ ، ورقم ٣٢ ص ٢٠٤ـــ٢٠٨

لها السلطان الشرعى — اسميا على الاقل — على جميع المسلمين ،نجد أن المجاهد المغربى يقوم بالحرب فى الاندلس باسم خلافته الخاصة أى خلافة الموحدين »[٥٢] • والاهم فى موضوعنا أن صلاح الدين بعث أثناء تأهبه لخوض معركته هذه بالسفارات الى حكام المسلمين يطلب تأييدهم ، وكان من بين سفاراته سفارة وجهها الى يعقوب المنصور الموحدى •

وجاء فى خطبة صلاح الدين فى جنوده قبيل معركة حطين : « باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل فى بلدنا ، وقد وطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله • وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجده ننتظرها سوى الملك العادل (أخ صلاح الدين) وهو واصل ، وهذا العدو ، ان بقى وطال أمره الى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك »[٥٣] •

ونستخلص من هذا النص أن صلاح الدين كان قد أرسل رسله الى الملوك وتلقى من الردود العملية ردا واحدا فحسب هو رد الملك العادل وان كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك • ومهما يكن الامر بالنسبة لمعنى هذا النص،

---

(٥٢) د . سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وابى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب،الاسكندرية ١٩٥٣ ص ٨٦

(٥٣) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٩٣ ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ . أحمد أحمد بدوى ، صلاح الدين الايوبى بين شعراء عصره وكتابه ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٨—١٩

ضمن المؤكد فيه أن ديوان الانشاء بمصر قد حرر رسالة حملها عبد الرحمن بن منقذ رسول صلاح الدين الى بلاد المغرب(٥٤) • فهل لنا من وقفة أمام أخبار هـذه السفارة ؟ •

خرج ابن منقذ من الاسكندرية متجها الى المغرب فوصل الى افريقية فى عام ٥٨٦هـ ـ ١١٩٠م(٥٥) ، ثم واصل ابن منقذ مسيرته حتى وصل الى بجابة • وفى رجب من نفس السنة وصلت كتب أبى زيد والى افريقية وأبى الحسن والى بجابة الى المنصور الموحدى تتضمن ما يشير الى وصول ابن منقذ الى ديارهم ومبالغته فى الحرص على كتمان خبر وصوله اليهم والهدف من هذه الزيارة • وأفادت هذه الكتب أيضا بمدى الترحاب الذى قوبل به هذا الرسول من . « •• الميرة وتوطئة المهاد » • ومن هذه الافادات أيضا أن عمال هذه الاقاليم قد نفذوا كل ما أوصى به الخليفة يعقوب المنصور من حسن استقباله واحسان وفادته وتكريمه لحين وصول الخليفة •

ولا يمكننا أن نفسر هذا الاهتمام باستقبال سـفير صـلاح الدين ورسوله الى يعقوب المنصور بأكثر من حرص هذا الخليفة على الفصل فى قضايا الحكم وموضوعاته بنفسه ، وعلى حد قول ابن عذارى : « كان حاضر الجواب مشرفا على أجزاء مملكته من القرب والبعد •• لا يغيب عنه شىء من أحوال رعيته »(٥٦) • كان المنصور يفضل الجلوس للاحكام بنفسـه ، لذلك طلب من عماله استضافة السفير بفاس الى حين عودته من افـريقية

---

(٥٤) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ . راجع أيضا : ابن واصل ، مفرج الكروب ، نشر د . الشيال ج ٢ ص ٣٦١ـ٣٦٢

(٥٥) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٣

(٥٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤٠

بعد أن يضع حدا لعبث ابن غانية وحلفائه المماليك الغز ، ثم عاد الى تلمسان فى شوال سنة ٥٨٧هـ — ١١٩١م حيث استقر بها الى آخر السنة • وفى أول المحرم من سنة ٥٨٨هـ — ١١٩٢م خرج المنصور من تلمسان وهو مريض وكان يركب فى محفته أو كما يسمونها أكرواوا ، فدخل فاسا وهو مريض • وقد أقعده هذا المرض بفاس مدة سبعة أشهر ، لم يرد فى المصادر(٥٧) عن أخبارها أى اشارة عن مقابلة المنصور لابن منقذ •

ويرد خبر هذه المقابلة بعد فترة النقاهة حيث استدعى المنصور ابن منقذ على انفراد ، فقدم له السفير هدايا صلاح الدين وتتكون من مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيشة بمسك ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نشابا هندية ، وعدد من السروج المذهبة »(٥٨) • وأوضح ابن منقذ للخليفة الموحدى الغرض من سفارته وعرض له طلب صلاح الدين الاستعانة بالبحرية المغربية لعرقلة المسيحيين الكفار فى المغرب وعدم تمكينهم بارسال المدد الى اخوانهم فى الشام ، مما يمكن مسلمى الشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا ، مع بيان أهمية عكا بالنسبة للمسلمين(٥٩) •

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين كان مطلعا على تفوق الموحدين

---

(٥٧) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٨٣ ، ابن ابى زرع ، القرطاس، ص ٢١٩ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٦

(٥٨) أبو شامة ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٣ . د . سعد زغلول ، العلاقة بين صلاح الدين ص ٩١

(٥٩) أبو شامة ، نفس المصدر ص ١٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٤٦ . القلقشندى ، صبح الاعشى ج ٦ ص ٥٣٠

العربى فى حوض البحر المتوسط الغربى ؛ وقد وقف على قوة أساطيل الموحدين ودورها فى انتصارات دولة الموحدين فى الاندلس على قوى النصرانية مجتمعة • والمعروف أن عبد المؤمن بن على اهتم باعداد قوة بحرية موحدية ضاربة ولهذا أمر فى عام ٥٥٧هـ — ١١٦١م بانشاء الاساطيل فى جميع سواحل المغرب فأنشأ أربعمائة قطعة : « منها فى حلق المعمورة[٦٠] ومرساها مائة وعشرون قطعة ، ومنها فى طنجة وسبتة وباديس[٦١] ومراسى الريف مائة قطعة ، ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هتين مائة قطعة ، ومنها ببلاد الاندلس ثمانون قطعة •• ونظر فى استجلاب الخيل للجهاد والاكثار من أنوا السلاح والعدد ، وأمر بضرب السهام فى جميع عمله ، فكان يضرب كل يوم منها عشرة قناطير ، فجمع من ذلك مالا يحصى »[٦٢] •

ومن مظاهر عناية خلفاء الموحدين بانشاء هذا الاسطول وحرصهم على دعم قوتهم البحرية أكثروا من انشاء دور لصناعة القطائع فمن أهمها : دار صناعة قصر مصمودة (القصر الصغير بين سبتة وطنجة) للسفن المخصصة لنقل المحاربين والمعدات ، ودار صناعة الحبالات (شرقى فاس عند ملتقى وادى فاس بوادى سبو) • كما انتشرت القلاع الساحلية حول المراسى لتمكين الدفاع البحرى عن القواعد وفى ذلك يقول ابن

---

(٦٠) تعرف اليوم باسم المهدية ، تقع على مصب نهر سبو ، والغابة المجاورة لها مازالت تحمل اسم غابة المعمورة .

(٦١) مدينة على ساحل البحر المتوسط غربى مدينة الحسيمة ، خربت ولم يبق منها الا الاطلال ، وتقع بازائها جزيرة صغيرة تسمى جزيرة بادس احتلها القائد الاسبانى بييدرو نافارو سنة ١٥٠٨ ثم استردها المغاربة سنة ١٥٢٢م ، واحتلها الاسبان للمرة الثانية ولازالت تحت الاحتلال الاسبانى .

(٦٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢١٣—٢١٥ . ابن أبى زرع القرطاس ، ص ٢٠١

خلدون : « ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة ، وملكـــوا العدوتين ، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهـد ، وكان قائدهم أحمد الصقلى .. وكانت له آثار ومقامات مذكورة فى دولـة الموحدين ، وأنتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجـادة مالم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه » (٦٣) . ولقد كان على أسطـول الموحدين الدفاع عن سواحل المغرب والاندلس والتصدى لاى غزو قـد تقوم به قوى النصرانية فى اسبانيا والبرتغال (٦٤) .

وفى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور بلغت دولة الموحديـــن أوج قوتها السياسية الدفاعية برا وبحرا (٦٥) . وليس أدل على عظم الاساطيل الموحدية وتفوقها على القوى البحرية الاخرى فى عصر يعقوب المنصور من نص الرسالة التى أرسلها ألفونسو الثامن ملك قشتالة الى الخليفة يعقوب المنصور يطالبه بارسال أســطول من المــراكب والشــوانى والطــرائد والمسطحات (٦٦) ، كى يجوز اليه بجيوشه ويقاتله فى بلده . هذا فضــلا عما رواه ابن سعيد المغربى (ق ٧ هـ) عن تجنيد المغاربة المقيمين فى مصر

---

(٦٣) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٥١ ص ٢٥٥

(٦٤) يضيف د . العبادى الى مهام الاسطول مهمة قمع حركات القرصنة التى كانت منتشرة فى حوض البحر المتوسط بين المسلمين والمسيحيين علـــى السواء (دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٤٧) .

(٦٥) يذكر السلاوى أن جميع انتصارات القوات البرية للموحدين دليل على مدى القوة البحرية التى كانت تواكب القوة البرية وتزودها بالمعـــدات والامدادات العسكرية أو نقل الجنود أو حماية الثغور والمضايق ونقـــل الرقاصين (عمال البريد) بسرعة (الاستقصا ج ٢ ص ١٨٤ . ابن زيـدان ، العز والصولة ، نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦١ ج ١ ص ٤٠٧)

(٦٦) الشوانى أو الشينى السفينة الحربية الضخمة التى كانت تتكـون من عدة طبقات كالقلعة . الطرائد أو الطريدة ، سفينة صغيرة السير والجرى والمسطحات هى المراكب الكبيرة الحجم ، كانوا يجرونها فى البحار خلف المراكب

للعمل فى الاسطول المصرى استنادا الى الفكرة التى كانت شائعة فى المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر (٦٧) .

ومع ذلك ، وبالرغم من مظاهر الحفاوة والتكريم التى تلقاها ابن منقذ أثناء مقامه بفاس وما صاحبه فى طريق عودته من ضروب الاعزاز والتعظيم فقد «قوبلت هداياه من العوض فى نفاسة الاشخاص والاثمان» (٦٨) وتعددت تفسيرات المؤرخين للموقف السلبى الذى وقفه المنصور من طلب صلاح الدين . وفى اطار هذه التفسيرات العديدة أقتصر هنا على ما يمس الواقع التاريخى من ذلك ما يتعلق باعتذار صلاح الدين الايوبى على لسان رسوله ابن منقذ عن أعمال القرصنة التى قام بها الملوك قراقوش وقد صفه بأنه : « من نفايات الرجال وليس من وجوه المماليك والامراء » . وأنهما ليسا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد أفتقد » ، فهو يستعيذ بالله من أن يأمر مفسدا يفسد فى الارض (٦٩) وهناك المشكلة التى أثارها لقب أمير المسلمين الوارد فى رسالة صلاح الدين فى الوقت الذى خاطب فيه ابن منقذ المنصور بلقب أمير المؤمنين مع أنه يمثل صلاح الدين (٧٠) . هذا بالاضافة الى ماورد من أقوال حول احتجاز

الاخرى من الاسطول خشية ان تغرق ، ولها سطحا كبيرا ، وهى من اكبر سفن الاسطول د . سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٢—٣٥٣ ، ٣٦٨

(٦٧) المقرى ، النفح ج ٣ ص ١١١—١١٢ . العبادى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥

(٦٨) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٤ راجع ايضا :

— George Marçais; La Bérberie Musulmane, Paris, 1946, p. 269.

(٦٩) ابن خلكان ، وفيات ج ٥٤ ص ٣٨١ ، سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٩٦

(٧٠) يذكر ابن عبود : « أن المنصور اخذته العزة لانه لم يخاطب بألقاب العظمة والخلافة حيث كانت عنده اعز من ضياع المسلمين وزوال ملكهم » تاريخ المغرب ص ١٤٤

المنصور لابن منقذ فى فاس الى حين عودته من حملته على افريقية وأنتهاء مهمته فى تلمسان •

وقد فسر البعض (٧١) هدايا يعقوب المنصور للسفير الايوبى بأنها كانت لشخصه فقط دون السلطان وأنها قدمت لابن منقذ شخصيا فى مقابل هداياه • ومن ثم ، فان الرعاية التى كفل بها الخليفة الموحدى هذا الرسول فى رحلة عودته يمكن أن تفسر فى نفس الاطار •

وأعتقد أن تفسير الموقف السلبى الذى اتخذه المنصور من رسالة صلاح الدين لا ينبغى أن يتجاوز الحدود الطبيعية للحوادث المعاصرة لهذه السفارة ، فلا يجب أن نذهب بعيدا فى تحليل هذا الموقف فنؤول مسلكه تأويلا يجانب الواقع • لقد جاءت سفارة صلاح الدين فى ظروف صعبة شغل الخليفة الموحدى أثناءها بمشاكل مصيرية كان عليه أن يواجهها : « فالاخطار كانت تهدد أملاكه الاندلسية والافريقية لم تكن أقل من الخطر الصليبى على عكا • وما عدا ذلك ، فان التفسير يجب أن يأخذ فى الاعتبار ما دار من معارك فى افريقية والمغرب الادنى كان محورها تذبذب ولاء القبائل العربية بين الموحدين والايوبيين ، وما يترتب عليه من نتائج

---

(٧١) خاطب ابن منقذ الخليفة الموحدى (يعقوب المنصور) بأمير المؤمنين حسبما كان رأيه فى البداية قبل ارسال السفارة ، ومدحه بقصيدة يقول فيها :

شأشكو بحرا ذا عباب قطعته ... الى بحر وجود ما لاخراه ساحل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل ... الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر مؤملا ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلى فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلى والنواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا ... تبلغك الآمال ما أنت آمل .

فأعطاه لكل بيت ألف دينار وقال له : « انما أعطيناك لفضلك ولبيئك»

ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٤ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص١٨١

أبرزها موقع القسم الشرقى من بلاد المغرب من الخلافتين الموحدية والعباسية ، ثم موقف دولتين متنافرتين سياسيا ومذهبيا : الدولة الايوبية الناشئة التى تدين حسبما وضح من رسالة صلاح الدين بالتبعية لخلافة مشرقية متهالكة والدولة الموحدية العتيدة التى لا تقر الا خلافتها الخاصة، ويدين سلطانها بالمذهب الشافعى (٧٢) الذى تلقاه الموحدون عن طريق رحلة ابن تومرت ويدين الايوبيون الذين يحكمون الشرق الادنى بنفس المذهب .

ومهما كان الامر فان الموحدين لم يتقاعسوا قط عن الجهاد ضد القوى الصليبية فى الشرق الاسلامى ، ولكن بأسلوبهم الحربى الخاص الذى يوائق سيطرتهم البحرية على الملاحة فى غرب البحر المتوسط (٧٣) ، وفى الوقت الذى يتناسب مع ظروف دولتهم . ومثل هذا الترقب انما يتفق ومنطق التفكير الحربى عند المغاربة بوجه عام .

---

(٧٢) يذكر هنرى لاوست فى كتابه عن فرق الاسلام أن المنصور الموحدى بعد « أن كان مالكيا انتقل الى الظاهرية ، ثم اعتنق المذهب الشافعى واختار كثيرا من القضاة من بين المنتمين لهذا المذهب »

Henary Laoust; Les Shismes Dans L'islam, Op. Cit.. p. 235.

ويقول الجزارى : « أن ابن حزم كان شافعيا فى بداية حياته وربما تأثر به المنصور . فكان معجبا به ويعتبره علما بارزا من أعلام الاسلام » . الموحدون ص ١١٠—١١١

(٧٣) يذكر المراكشي : أن المنصور أرسل أسطوله فى البحر « ليمنع الصليبيين من الوصول بكثرة الى بلاد الشام ، ولم يرد أن يشتبك معهم فى المعركة لغرض حربى » (المعجب ص ٢٥١) وهذا الغرض الحربى كان ذا شقين : الاول انشغال المنصور بمحاربة ابن غانية صاحب جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة الذى أعانه صلاح الدين بطريق غير مباشر وعن طريق حملة قراقوش انظر : ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣١ ص ١٩١—١٩٩ . والثانى مواجهة حركة الركونكستا

— G. Marçais; Les Arabes en Berberie du XI' au XIV' Siècles, Paris, 1913, p. 198—199.

وليس أدل على الهموم التى كان يواجهها المنصور عند قدوم سفير صلاح الدين الى المغرب من اعداده لمعركة الارك التى خاضها المنصور الموحدى فى أعقاب سقوط مدينة شلب فى أيدى البرتغاليين سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٦ م وانتصر فيها انتصارا يماثل انتصار المرابطين فى الزلاقة على النحو الذى سنوضحه بعد قليل • وحدث أيضا أن المنصور اعتل علة أقعدته فى مراكش ، وأطمعت فيه ملوك النصرانية خاصة ملك قشتالة الذى أنتهز فرصة انقضاء مدة الهدنة (٥ سنوات) [٧٤] فعاث فى بلاد الاندلس عيثا شديدا • بل حدث أن بعث ملك قشتالة رسولا الى الخليفة يعقوب يتوعده ويطالب منه التخلى عن بعض الحصون المتاخمة لبلاده [٧٥]

وواضح أن أسلوب ألفونسو الثامن فى هذه الرسالة لا يختلف عن أسلوب ألفونسو السادس فى رسالته التى وجهها الى يوسف بن تاشفين ويتحداه فيها أن ينقل المعركة الى أرض المغرب [٧٦] •

ويورد د • سالم تفاصيل دقيقة لمعركة الارك التى أصابت قلب الجيش الصليبى وبالتالى منعت التحرك الصليبى الى المشرق حيث يقول : « •• وكان ألفونسو واثقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيش ملك ليون وجيش ملك نبرة •• وحملوا على القشتاليين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة القواسين ترمى العدو بالسهام ، فانهزم القشتاليون

---

(٧٤) قدم يوسف بن الفخار اليهودى رسولا من الملك القشتالى من أجل تثبيت الهدنة (ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ص ١٨٧ ؛ ١٩٢ . المقرى ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١٤) .

(٧٥) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٢٠ . ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٢٠—٢٢١

(٧٦) كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٦٠ ص ١٧٨ وانظر ايضا جواب يوسف بن تاشفين على تلك الرسالة فى كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٦١ ص ١٧٩

وولوا الادبار ، وتحكمت فيهم سيوف الموحدين ، فقتل من فرسان نظام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنثالوفيجاس ومن معه من مطوعة البرتغاليين ، ونهب المسلمون معسكر النصارى ، وأفلت الفونسو الثامن بنفسه الى طليطلة ، وتحصن فل جيشه بحصن الارك»(٧٧)

وترجع هزيمة القشتاليين الى أن المنصور قد نجح فى اختيار الوقت المناسب للمعركة ؛ فقد كان الفونسو الثامن فى عداء مستحكم مع ملك ليون وملك نبرة . ولم تنجح جهود الكاردينال جريجوريوس لمحو هذا العداء ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضى المسلمين دون أن تقابل مقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش الموحدين ، ولم يفكر فى مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن قيادة المنصور وشجاعته (٧٨) .

شبه المؤرخون معركة الارك بمعركة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ان لم تكن أعظم منها . وبدت علاقات الموحدين الحربية بالاندلس فى حينها أشبه بعلاقة الام الرؤوم بطفلها اليتيم وهذا ما أفصح عنه المنصور صراحة فى وصيته للموحدين عندما شعر بدنو أجله حيث قال : « أيها الناس أوصيكم بتقوى الله وأوصيكم بالايتام واليتيمة ، فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص محمد بن يحيى الهنتاتى : يا سيدنا ومولانا وما الايتام واليتيمة ؟ فقال : الايتام أهل جزيرة الاندلس وهى اليتيمة فاياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الاسوار وحماية الثغور

---

(٧٧) د . سالم ، المغرب الكبير (١٩٦٦ م) ص ٧٠٧ــ٧١٠

(٧٨) د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧١١

وتربية أجنادها وتوفير رعايتها ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس فى نفوسنا شىء أعظم من همها ولو مد الله لنا فى الخلافة الحياة لم نتوان فى جهاد كفارها حتى نعيدها دار اسلام ، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى وحسن نظركم فيها فانظروا للمسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها » (٧٩)

وهذا النص وحده كفيل بتفسير اعتذار المنصور الموحدى عن عدم تلبية طلب صلاح الدين • فالحرب المغربية هنا على مشارف العالى الاوربى (الصليبى) ان لم تكن فى قلبه ، وهدفها الرئيسى دفع الخطر الجاثم على دولة الاسلام وأسترداد ما أقتطع من أرض الاجداد فى الاندلس وحماية ما تبقى بأيدى المسلمين من هذه الاراضى • أما الاختيار فى الجهاد الاسلامى بين ميدان وآخر ، فان السبيل اليه يدخل فى مقتضيات ظروف الدولة الاسلامية وأهدافها • وقد سبقت الاشارة الى هذه المقتضيات والاهداف التى أفترضها سبيل الاختيار أمام المنصور الموحدى فى موقفه من سفارة صلاح الدين الايوبى • ومع ذلك ، لم يخل الامر فى التفكير الموحدى آنذاك من اصرار على التعلق بالشرق حيث شاع عند وفاة المنصور فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م (٨٠) من أنه « ساح فى الارض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ، ودفن هناك بالبقاع » (٨١) •

---

(٧٩) مجهول ، الحلل ، تحقيق علوشى ، ص ١٣٣ ، ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٠٨ . المقرى ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١٤ . ابن عبود ، تاريخ المغرب ص ١٤١ .وعن اطلاق المنصور أسارى معاركه، وهى من اعظم اخطائه انظر :

— Marçel Peyrouton; Histoire du Maghreb, p. 99.

(٨٠) توفى بمراكش من ربيع الاول سنة ٥٩٥ هـ ودفن بتينملل بجوار أبيه وجده . راجع فى ذلك ابن خلكان ، وفيات ج ٧ ص ١٨—١٩ . المراكشى ،المعجب ص ٢٢٤ . مجهول ، الحلل ، ص ١٣٤

(٨١) يذكر الشريف الغرناطى فى شرح مقصورة حازم : « أن ذلك من هذيان السامة لولوعهم بالسلطان » انظر ، المقرى ، المصدر السابق ج ٦ ص

وعندما يقف القارىء على مظاهر الفخامة والابهة فى دولة يعقوب المنصور ، يسهل عليه تصور ما كان يختلج فى فكر الموحدين من شعور بالسيادة يتضاءل فى اطاره كل دور سياسى وحربى تقوم عليه دولة مشرقية ناشئة مثل الدولة الايوبية • وأن النص التالى المأخوذ عن ابن صاحب الصلاة يطلعنا على جانب هام من هذه المظاهر ترتبط بالصورة التى حرص الموحدون على أظهارها فى فتوحاتهم • فها هو الخليفة يعقوب المنصور عندما تأهب لدخول المهدية يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ٥٦٦ هـ قد : « •• نزل فى موضع فصيح (يقصد فسيح) من الارض مع الوزراء والاشياخ من الموحدين والطلبة الكبراء ، وأمر باحضار أربع رايات صغار ، فى أربعة رماح صغار ، وفى أعلى كل رمح تفاحة من ذهب تتلالا ضياء وشعاعا ، والرايات ملونات بالخلدى (٨٢) الاحمر والاصفر والابيض (٨٣) وجعل تلك الرايات الاربع فى أركان تابوت المصحف المكرم

---

١١٦ . ويمكن تفسير هذا التعلق بأنه تصوف وتنسك فكان يلبس الصوف ناهجا منهاج الصحابة والتابعين متبعا فى ذلك قول الله : « رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٢٠ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١١

(٨٢) أسم معروف فى بعض الكتب الاندلسية ومعناه النسيج الحريرى الدقيق ، وهكذا تكون الصفات الثلاثة الآتية كلها نعتا للخلدى ، أى أن الراية الموحدية تتألف من نسيج احمر واصفر وابيض . المن بالامامة ، ص ٤٤٥

(٨٣) هذا وصف دقيق للرايات حيث أن العلم الابيض الخالص كان علم المهدى وعبد المؤمن أو بالحرى هو علم الامبراطورية الموحدية ، كما أن اللون الاحمر كان محببا عند أشراف العرب ، هذا الى أن اللون الاصفر يرمز عند الذين يهتمون بخصائص الالوان الى الارض وثروتها .. فهل يشير هذا العلم الموحدى الاضافى الى وحدة البربر — ولون رايتهم بيضاء — مع العرب ولونهم هو الحمرة ، كما يشير اللون الثالث الى ثروة الارض ؟ المهم أن معظم هذه الالوان ظل معروفا الى الان فى جل بلاد المغرب .

— Debreuil; Les Pavillons des etats Musulmans. Hespéris Tamuda, 1960. T.I., p. 548.

مصحف عثمان رضى الله عنه ، ثم استوى على صهـــوة فرسه ، ومشى على الهيئة المتقدمة ، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب قد ملاوا بسيـــط الارض ، واتسعوا فيها بالطول والعرض ، فلما قرب من المدينة أمر بتقديم الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفين المذكورين (المصحف الثانى هو مصحف المهدى) مع السلقة ، على خلاف العادة فى المشى (٨٤) تنويهـــا وتعظيما للتبريز والترتيب وهو رضى الله عنه متقدم والاشياخ من الموحدين والوزير والكتاب والطلبه وراءه ، حتى وصل باب مدينة المهدية فرد وجهه الى الناس وأستقبلهم وهو راكب على فرسه وعالهم ، وأمرهم بالنزول فى تلك الارض العريضة ودخل داره (٨٥) بالمهدية المذكورة • وكان هـــذا التبريز للنظارة من احـــدى العجائب وأفخم الظهـــور والدنور للعساكر والكتائب » (٨٦) •

---

(٨٤) جرت العادة بأن تدق الطبول وراءه فى الوقت الذى يتقدم فيـــه الراية البيضاء وحدها الموكب .

(٨٥) هذه الدار لا تزال آثارها ـــ فيما نعتقد ـــ داخل القصبة ولها صلة بالمنزل الذى يوجد فى اقصى طريق الجامع فى الزاوية التى تؤدى الى الساحة المشرفة على المحيط ، ويحمل المنزل اسم دار البركة ، وهى مستوحاه من لفظ البركة التى استعملها الموحدون . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٤٤٤

(٨٦) انظر ، ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٤٥